

الدلالة التاريخية للفظ العربي

للاستاذ عبد الله كشتون

عضو مجمع اللغة العربية (القاهرة)

القنداق

الله ، لقد جالسناك دهرًا طويلًا فما رأيناك ذاكرتنا بشيء من هذا .

وقد استوقف نظري في هذه الجمل لفظ قنداق وجمعه قناديق ، ولم اكن سمعت به من قبل ، فرجعت الى لسان العرب فوجدته يقول : « القنداق: صحيفة الحساب » ولم يذكره في القاموس ، لكن صاحب التاج استدركه عليه بهذه الصورة :

« وما يستدرك عليه القنداق صحيفة الحساب كما في اللسان واورده المصنف تبعًا للساغاني في فندق (هنا موضعه) وقد رجعت الى القاموس في فصل الفاء من باب القاف فاذا نصه : والقنداق بالضم صحيفة الحساب) وزاد عليه في الشرح قوله : « وقال الاصمعي احسبه معربًا قلت والمشهور بالقاف كما يأتي (2) » ثم رجعت الى اللسان في فصل الفاء من حرف القاف فاذا هو يقول : « الليث : القنداق هو صحيفة الحساب قال الاصمعي احسبه معربًا » .

هملت من هذه الاقوال ان القنداق هو صحيفة الحساب ولكن لا على سبيل القطع فان بعضها يجعله بالفاء بدل القاف فبقي علي تحقيق ذلك ، ثم النظر في وجه تسمية هذه الصحف التي خلفت عن مالك والتي رفعت اليه وفيها مسائل الفقه والعلم بالقنداق وهو صحيفة الحساب ، وبعد ذلك معرفة اصله اذا كان معربًا ، فان هذه الاقوال لم تنص على اللغة التي عرب منها .

وقد استنجدت بكتاب العرب للجواليقي فوجدته قد ذكره في باب الفاء ولم يزد شيئًا على قوله « والقنداق

قرأت من مدة طويلة في القنراق كتاب المدارك للقاضي عياض اثناء ترجمته للامام مالك ، والكتاب من امهات كتب التراجم لعلماء المالكية وهو ما يزال مخطوطًا غير مطبوع كما لا احتاج ان اقول ، قرأت ما يلي :

« قال ابو مصعب قال لنا المغيرة تعالوا نجتمع ونستذكر كل ما بقي علينا مما نريد ان نسأل عنه مالكا فمكننا نجع ذلك وكتبناه في قنداق ووجه به المغيرة اليه وسأله الجواب فأجاب في بعضه وكتب في الكثير منه لا ادري . فقال المغيرة يا قوم لا والله ما رفع الله هذا الرجل الا بالتقوى من كان منكم يسأل عن هذا يرضى ان يقول لا ادري ؟

وقرأت فيه هذه النبذة ايضا :

« قال القطان لما مات مالك رحمه الله خرجت كتبه فأصيب فيها قنداق عن ابن عمر ليس في الموطأ منه شيء الا حديثان .

وهذه النبذة الثالثة :

« قال عتيق : قال مالك أخذت عن ابن شهاب تسعة قناديق في بطونها وظهورها . ان منها اشياء ما حدثت بها منذ أخذتها بالمدينة . واخيرا قرأت هذا الخبر :

« لما دفن مالك أخرجت كتبه فاذا فيها سبع قناديق من حديث ابن شهاب ظهورها وبطونها ملأى وعنده (1) قناديق وصناديق من كتب أهل المدينة . فجعل الناس يقرأون ويقولون : رحمتك الله ابا عبد

(1) كذا بالاصل ولعل الصواب وعدة .

(2) اي في فصل القاف من باب . وهو النص السابق بما استدركه علي المتن .

صحيفة الحساب اعجمية معربة « وأملت أن يكون عند صاحب شفاء الغليل مزيد من علم يشفي غلتي فاذا هو لم يذكر اللفظ اطلاقاً في حرف الفاء ولا في حرف القاف .

ازاء هذه المعلومات المضطربة والمراجـــــع الشحيحة لم يبق أمامي الا اللجوء الى ارباب المعرفة باللغات الشرقية التي يظن ان العربية أخذت ذلك اللفظ منها ولما لم أحصل على جواب كاف قررت البحث في معاجم اللغات المشار إليها ، ولم يكن عندي منها الا معجم واحد صغير يسمى الدراري اللامعات في منتخبات اللغات وهو كما قال صاحبه محمد علي الانسي تاموس للغة العثمانية يحتوي على الكلمات التركية والالفاظ الفارسية والفرنسية المتداولة في تلك اللغة ، مطبوع في بيروت سنة 1318هـ ، وقد جاء فيه اثناء حرف القاف ما يلي :

« قونداق : مشدود ، قماط ، لفافة ، مؤخر البارودة . شعلة ثم زاد قاتلا :

« قونداقجي : مصلح البواريد ، محرق » .

ونستفيد من هذا النص أن التعريب الذي حصل في لفظ الكلمة هو حذف الواو من بعد القاف ، وأن صحيفة الحساب ليس من جملة معاني اللفظ وقد نقلت كلام هذا المعجم في القونداقجي لانه كان عندنا في طنجة أسرة من قدماء مهاجري الجزائر اسمها العائلي هو القونداقجي ، وكان بعض الناس يحرفه الى الخندقجي فكلمت رئيسها يوماً في ذلك وكنت اعتقد أن الخندقجي صواب وأنه نسبة الى الخندق ، فقال لي بل هو بالقاف وأنه يرجع الى احدى الصنائع المتعلقة بالبندقية او المكحلة كما نقول نحن في المغرب للبندقية . وقد صحح هذا المعنى النقل المذكور من تاموس اللغة العثمانية ، وبين لنا أن تلك الصنعة تتعلق بخشبة البندقية التي عبر عنها في هذا القاموس بمؤخر البارودة وعن صانعها بمصلح البواريد » .

وبعد هذا أوقفني الاخ الاستاذ محمد الخالصي من افاضل علماء بغداد على النص الآتي من المعجم الفارسي « فرهنگ نفيسي ج 4 ص 2713 : « قنداق من التركية : الخشبة توضع فيها انبوية البندقية . الخرقه تلف بها يدا الطفل ورجله وتشد بشرط .

ثم على نص آخر من معجم فارسي لسيد محمد علي، اسمه (فرهنگ نظام) ج 4 ص 142 وهو «قنداق: محرف غنداغ » .

ونقل التفسير الآتي عن هذا المعجم في لفظ غنداغ من ج 3 ص 747 ونصه :

« غنداغ : الخرقه تلف بها الطفل المرضيع ، اصل الكلمة في السنسكريتية بمعنى اللف » .

ولاحظ الاستاذ الخالصي ان كلمة غنداغ لا تزال مستعملة في اللغة الفارسية الدارجة بمعنى القماط الذي يلف فيه الوليد وقد تلفظ قنداغ او غنداغ ، كما ان العراقيين ما زالوا يطلقون على اخمص البندقية كلمة القنداق .

هذا فيما يتعلق بالقنداق بالقاف واما القنداق بالفاء فقد نقل لي الاخ المذكور من المعجم الفارسي (فرهنگ نفيسي) قوله عنه في ص 2589 من الجزء الرابع انه (تامة حساب) وترجمتها ورقة الحساب . فيؤخذ من هذه النصوص ان القنداق هو غير القنداق ، وأن الاول أصله الغين وقد حرف الى القاف وعرب بالقاف خلاف الثاني فانه بالفاء اصلا .

أما من حيث المعنى فان الذي يطلق على صحيفة الحساب هو القنداق بالفاء كما اقتصرت عليه معجم فرهنگ نفيسي ولم يذكر هذا المعنى لذي القاف هو ولا صاحب الدراري اللامعات . وعليه فان المصنف الفيروزبادي على صواب في ذكره في فصل الفاء من باب القاف بهذا المعنى مقتصرًا عليه تبعًا للساغاني كما قال صاحب التاج . واعتراض هذا عليه بأن موضعه القاف وأنه هو المشهور غير صحيح .

ويتأيد هذا بذكر الجواليقي له في الفاء غير متردد كما تردد ابن منظور حين ذكره في الحرفين معاً . وعلى كل حال فنحن نطلب تفسير لفظ القنداق الذي ورد في تلك العبارات المتعددة من كتاب المدارك بالقاف افراداً وجمعاً ، ومعنى ورقة الحساب بعيدة عن المراد به فضلاً عن أنها تفسر ذا الفاء وليس هو مطلوبنا .

ونرى أن ما ورد في تفسير القنداق من أنه القماط واللفافة وقول صاحب معجم (فرهنگ نظام) أن أصل الكلمة في السنسكريتية بمعنى اللف ، يوحي لنا بأنهم كانوا يطلقون اللفظ على الصحيفة التي تلف وتلوى كالانبوية والجمعة ، وأن هذه القناديق التي وجدت في تركة الامام مالك أو التي وجهت اليه كانت صحفاً مكتوبة تارة من وجهين وتارة من وجه واحد وهي ملفوفة كما يلف القماط على الوليد وذلك على مثال ما لا يزال الكثير منا يفعله في الوثائق والخرط ونحوها . وهو من مجاز التشبيه كما لا يخفى .

ان هذا هو ما وصلت له بعد البحث الدقيق في معنى هذا اللفظ واذا كان عند أهل الذكر شيء غير هذا فليخرجوه لنا مشكورين .

التقييم

كثر استعمال هذا اللفظ في الأيام الأخيرة ، وخاصة من النقاد المحدثين كثرة ملحوظة تنبئ عن الأصرار على مخالفة القياس به ، وعدم الأخذ بتوجيهات علماء النحو والصرف الذين لم يفتأوا ينبهون على خطأ ذلك الاستعمال ، ويبينون أن صوابه هو التقويم بالواو لا بالياء .

ويظهر أن الأدباء والنقاد من الجيل الجديد وجدوا له جرسا يتلاءم مع ما يدعون اليه من مذاهب جديدة ، ودلالة ادق على التجارب التي يستهدفون تنديدها للناس .

إن التقويم في نظرهم أصبح عملية تختص بتقدير الثمنات وقياس المثليات على ما يفهم من كلامهم ، أما الأعمال الأدبية والمذاهب الفكرية فإن وزنها وتحليلها يجب أن يعبر عنه بلفظ آخر يكون أكثر استجابة للبواعت المعنوية والمعايير الفنية ، وليس هو الا التقييم .

لست بصدد مناقشة هذا الرأي ، ولكني أحب أن ألفت النظر الى نص قديم ورد فيه هذا الاستعمال ، ولم يثر كثير اهتمام من الذين تناولوه بالشرح مع أنهم جميعا من أهل العلم الذين لا يخفى عليهم أمره . وهذا النص هو أثر روي في صحيح البخاري عن الزهري في كتاب الإكراه وبالضبط في باب إذا استكرهت المرأة على الزنا . وهو : « قال الزهري في الإمة البكر ، يفترعها الحر ، يقيم ذلك الحكم من الإمة العذراء بقدر قيمتها ويجلسد . »

وأنا وإن كنت لا أجهل ما قيل في الاستشهاد بالحديث على مسائل النحو واللغة ، وأعرف أن لفظ الشاهد يحتمل قراءتين ولعلمها روايتان : يقيم (المهموز) ويقيم (المضعف) فإني أسوق هنا ما كتبه شراح البخاري على هذا اللفظ واستخلص منه النتيجة الطبيعية التي يؤدي إليها .

فالقسطلاني لم يزد على أن يفسر يقيم بيقوم (المضعف) وابن حجر قال : « ومعنى يقيم يقوم » أما العيني فنص ما كتب : « قوله يقيم ، قال الكرمانى ويقيم أما بمعنى يقوم وأما من قامت الإمة مائة دينار إذا بلغت قيمتها : « وبقية الشراح الذين راجعناهم لم يتكلموا على اللفظ أصلا ، فكانهم مسلمون له ، كما أن الآخرين وجهوه ولم يعترضوه . »

1 — وازيد على هذا قول الفيومي في المصباح : « قام بالامر يقوم به قياما فهو قوام وقائم ، واستقام

الامر ، وهذا قوامه بالفتح والكسر . وتقلب الواو ياء جوازا مع الكسرة اي عماده الذي يقوم به وينتظم . ومنهم من يقتصر على الكسر ومنه قوله تعالى (التي جعل الله لكم قياما) ..

فقد قلبوا الواو ياء مناسبة للكسرة مع أن التصحيح لا ينافيها وهو وارد معها ومع الفتحة .

2 — وقال الفيومي أيضا : « وقام المتاع بكذا أي تعدلت قيمته به . والقيمة الثمن الذي يقاوم به المتاع أي يقوم مقامه ، والجمع القيم مثل سدره وسدر ، وشيء قيمى نسبة الى القيمة على لفظها لانه لا وصف له ينضبط به في أصل الخلقة حتى ينسب اليه ، بخلاف ما له وصف ينضبط به كالحبوب والحيوان المعتدل فإنه ينسب الى صورته وشكله فيقال مثلي أي له مثل شكلا وصورة من أصل الخلقة .

والشاهد منه في قوله نسبة الى القيمة على لفظها يعني لانه لو كان نسبة لها على القاعدة النحوية المعروفة لقيل قومي بفتح ثانيه بعد رده الى أصله الواوي . وليس قولسه لانه لا وصف له تعليلا لهذه النسبة وانما هو بيان لمعناها بدليل مقابلته بالمثلى ... وهذا اصطلاح فقهي كما لا يخفى ، فاذا صح للفقهاء ان يخالفوا قاعدة النسب في قيمي مع مثلي فلا مانع أن يصطلح الأدباء على جعل تقييم بالياء وأن خالف القاعدة لغرض بياني واضح .

3 — ثم أضيف الى ذلك ما جاء في البحر المحيط لابي حيان على الآية الأئمة الفكر (ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) قال :

« وقرا نافع وابن عامر قياما وجههور السبعة قياما وعبد الله بن عمر قواما بكسر القاف والحسن وعيسى بن عمر قواما بفتحها ورويت عن ابي عمرو وقرئ شاذا قوما ، فأما قياما فمصدر كالقيام (3) قاله الكسائي والفراء والاقفش وليس مقصورا من قيام . وقيل هو مقصور منه . قالوا وحذفت الالف كما حذفت في خيم وأصله خيام . أو جمع قيمة كديم جمع ديمة قاله البصريون غير الاقفش ورده ابو علي بأنه وصف في قوله ديننا (4) قياما والقيم لا يوصف به ، وانما هو مصدر بمعنى القيام الذي يراد به الثبات والدوام . ورد هذا بأنه لو كان مصدرا لما أعل كما لم يعلنو حولا وعوضالاته على غير مثال الفعل لاسيما الثلاثي المجرد وأجيب بأنه تبع فعله في الاعلال لانه مصدر بمعنى القيام فكما أعل القيام أعل هو . وحكى الاقفش قياما وقوما قال والقياس تصحيح الواو وانما اعتلت على وجه الشذوذ كتولهم ثيرة (5) وقول بني ضبة طيسال

(3) في الاصل فمقدر كالقيام والقيام ونظن أن ذلك من خطأ الطبع .

شجيب

جاء في المعجم الوسيط ما يلي : شجب الشيء يشجب شجبوا هلك ، وفلان حزن والغراب شجيبا نقى بالبين وفلانا شجبا أهلكه ، ويقال شجب الصيد رماه بسهم فأصابه وأعجزه عن الحراك ، وفلانا احزنه والشيء فلانا شغله والشيء جذبته ، يقال شجب اللجام . وشجبه عن حاجته . وشجب القارورة بالشجاب شدها . الخ

وهذه المعاني التي ذكرها المعجم الوسيط لشجب وما تصرف منه هي بعينها الواردة في التاموس وغيره من معاجم اللغة . ولعلنا نلاحظ ان المعنى الوحيد الذي يستعمل فيه هذا الفعل بكسرة اليوم ، لم يرد في المعاجم وهو شجب بمعنى انتقد وندد . يقال شجب الخطة أو السياسة الفلانية يشجبها شجبا أي انتقدها وندد بها وهاجمها وحمل عليها . وهذا كثيرا ما يرد في الصحف اليومية معبرا به عن الموافقات المضادة التي يقفها مندوبو بعض الدول في المنظمات السياسية من سلوك بعض الساسة والحكومات في دول أخرى . وظاهر ان معنى هلك واهلك وحزن واحزن غير موافق للمعنى المراد هنا ، اللهم الا ان يستعار له معنى رمى الصيد الوارد لذلك الفعل وحينئذ فينبغي النص عليه في المعاجم اللغوية الجديدة ، والا يجب (شجبه) أي هلكه بمعنينا ما يغني عنه ما ذكرناه كندد به وهاجمه وما الى ذلك.

وديان

لا يكاد الكتاب اليوم يستعملون في جمع واد ، الا هذه الصيغة اعني صيغة وديان وهي صيغة لا قياسية ولا واردة عن العرب في جمع هذا المفرد . فجموعه التي ذكرتها المعاجم ثلاثة هي أوداء وأودية وأوداية ، ويمكن أن يزداد عليها أوداه بقلب المهزة هاء في أوداء وهي لغة طيء . وصحف بعضهم الجمع الاخير وهو أوداية إلى أودية وانشد عليه . وأقطع الإبحر والأودية ، لكن ابن سيده نبه على هذا التصحيف وقال ان صوابه والأودية بدليل ما قبله وهو قوله : أما تريني رجلا دعكاية .. فنحن اولاء نرى أن ليس بين هذه الجموع المنصوصة وديان .

وأما القياس فقد أشار ابن مالك في الكافية الى ما يجمع على -فعلان بقوله :

في جميع طويل وقول الجميع جباد في جمع جواد ، وإذا علو ديبا لاعتلال ديمة فان اعلال المصدر لاعتلال فعله أولى . الا ترى الى صحة الجمع مع اعتلال مفردة في معيشة ومعاش ومقامة ومقاوم ، ولم يصحوا مصدرًا علوا فعله .

ففي هذا الكلام أكثر من سند لاعتلال تقييم . ولاسيما قوله الاخير ولم يصحوا مصدرًا علوا فعله . وان كان ليس على اطلاقه ، ولكن يكفي في الاعتضاد مجيء تيبا بالياء من قام الواوي مصدرًا قرىء به في السبع .

4 — واخيرا قال في لسان العرب بعد أن نكسر من أسمائه تعالى التيوم والقيام : وقال الفراء صورة التيوم من الفعل التيعول وصورة القيام الفيعال وهما جميعا مدح ، قال وأهل الحجاز أكثر شيء قولًا للفيعال من ذوات الثلاثة مثل الصواغ يقولون الصياغ . وقال الفراء في التيم هو من الفعل فعمل أصله تويم وكذلك سيد سويد وجيد جويد بوزن ظريف وكريم . وكان يلزمهم أن يجعلوا الواو الفا لانفتاح ما قبلها ثم يسقطونها لسكونها وسكون التي بعدها فلما فعلوا ذلك صارت سيد على فعل ، فزادوا ياء على الياء ليكمل بناء الحرف . وقال سيويوه : تيم وزنه فيعمل وأصله تيوم ، فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن ابدلوا من الواو ياء وادغموا فيها الياء التي قبلها فصارت ياء مشددة . وكذلك قال في سيد وجيد وميت وهين ولين . قال الفراء ليس في ابنية العرب فيعمل والحي كان في الاصل حيوا ، فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن جعلنا ياء مشددة .

ثم قال في جمع قوم : « والجمع اقوام واطاوم واطايم ، كلاهما على الحذف . قال ابو صخر الهذلي ، انشده يعقوب :

فان يعذر القلب العشية في الصبا

فؤادك لا يعذرك فيه الاقوام

ويروى الاقايم . وعنى بالقلب العقل .

فهذا الكلام كله يدل على تقارض الواو والياء في هذه المادة تقارضا يكاد يكون اعتباطيا لا يرجع الى قاعدة ، مما يضطر العلماء معه الى التماس الوجوه والمخارج له ، فهلا يسع الذين يقولون تقييم ما وسع اجدادهم هؤلاء ؟

(4) أي في قراءة ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي

(5) يعني في جمع ثور .

لتسجيل الدلالة التاريخية التي مر بها للانتفاع بذلك
في المعجم التاريخي للغتنا الضادية الذي ينوي المجمع
اللغوي وضعه في المستقبل القريب أعانه الله على
ذلك .

فقد تعرض القاضي رحمه الله لمحنة أحد الفقهاء
فقال : « إن الوالي ضربه وحبسه ، فتحاشد الناس ،
وكان بعضهم يقع عليه ليقه بنفسه .. وأخرج اليهم
الاجناد ففضوهم » فتحاشد هنا قد استعمل في تمام
المعنى الذي نستعمل نحن فيه اليوم تظاهر .. وأما
فضوهم فيغلب أن نقول بدله فرقوهم . ولكنه مستعمل
أيضا .

التكميد

وهذا لفظ آخر من وادي ما قبله .. وقفت عليه في
كتاب أجوبة فقهية للقاضي عبد الوهاب ضمن مجموع
في المكتبة الوطنية بمدريد يحمل رقم 4950 وقد تعرض
فيه لضمان الصناع والكماد بالخصوص . وأطلق التكميد على
ما نسميه اليوم بكبي الثياب وهو تعبير اخواتنا في
المشرق أو تحديدها وهو تعبيرنا في المغرب ، وأطلق
الكماد على المكوجي ، وكنت احسب ان الكماد فيما
اتى من اسماء بعض اهل العلم يرجع الى الكمد
والحزن .. فاذا به يرجع الى هذه الصناعة ولذلك
سجلت هذه الفائدة ، وهي أيضا من الدلالة التاريخية
للالفاظ .

فعلان لاسم كفعال (1) وفعل (2)
وفعل (3) الواوي عينا وفعل (4)
وفي ففعال (5) وففعال (6) قد يرد
كذا ففعل (7) وففعال قد وجد (8)
في فاعل (9) وففعلة (10) وففعال (11)
وففعلة (12) ففعلة (13) وففعال (14)
في فعلان (15) وففعال (16) قد نقل
والثاني نادر ولكن احتمل
وهي ستة عشر وزنا ليس فيها وزن واد كما
نرى ، فماذا إذن ؟
لا شك أن هذا الجمع غلط ، ولعله كان قياسا
من قائله الاول على مفردات الوزن الثالث مثل نار
وتيران وغار وغيران وتاج وتيجان وجار وجيران
ولكن هذه ثلاثة صحيحة اللام بخلاف واد .

أما سر انتشاره فيرجع فيما أظن الى الترجمة،
لان المعجم الوحيد الذي اثبته هو معجم الاب بيلو
الفرنسي العربي ، وقد اثبته في هذا المعجم بين
توسين اشارة الى التحفظ بشأنه ، ولكنه في الفرائد
الدرية الذي هو النسخة العربية الفرنسية من هذا
المعجم حذف التوسين فبقى وديان على قدم المساواة
مع الجموع الصحيحة ، فاعتدهم الترجمة وسار هذه
السيرورة التي غطت على غيره .

تحاشد الناس

هذا تعبير ورد في المدارك للقاضي عياض عما
نقول فيه اليوم تظاهر الناس . وأنا لم أوردته هنا الا

- (1) نحو غلام وغلما .
- (2) كصرد وصردان .
- (3) مفتوح الفاء ومضمومها كتاج وتيجان وعود وعيدان .
- (4) كخرب وخربان .
- (5) كفزال وغزلان .
- (6) كصوار وصران .
- (7) كظليم وظلمان .
- (8) كخروف وخرقان .
- (9) كحائط وحيطان .
- (10) كتنوة وئسوان .
- (11) كتنو وئسوان .
- (12) كبركة وبركان .
- (13) كتضفة وقضبان .
- (14) كضيف وضيفان .
- (15) نحو كروان وكروان .
- (16) كضفن وضمفان .